نحو مجتمعات تكنولوجية مؤنسنة
من مأزق الكينونة المستلبة "ايريك فروم"
إلى رحابة تقانة أكثر انسانية "جلبرت سيموندون".

To wards Humanized Technological Societies
From the Dilemma of Dispossessed Being
"Eric Fromm"
to the Spaciousness of More Human Technology
"Gilbert Simondon"

فطيمة معافة.

- جامعة الحاج لخضر؛ باتنة1(الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *Fatima.Maafa@univ-batna.dz*

تاريخ الإرسال: 2024/01/11؛ تاريخ القبول:2024/04/23؛ تاريخ النشر:2024/06/15.

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في أبرز ما يمكن اعتباره انفراجا لتأزمات الوضع التكنولوجي المعاصر، وحلا فعالا لانتشال هويته الغربية من غياهب ومآزق غياب معانيها الإنسانية، التي أصبحت في ظل المجتمع التكنولوجي وقفزاته العلموية التي كانت لها اليد العليا في اغتيال إنسانيات المجتمعات، باهتة المعالم، خافتة الوجود، منعدمة الهوية، لتصبح بذلك الذوات الإنسانية كفعاليات واعية وارادات انتاجية مجرد متلقي سلبي خاضع لوثنية صناعاته المادية، ذلك ما خلف تأزما حضاريا بات يهدد قيم الإنسان ويشتت أبعاده الذاتية والروحية، إن هذا الوضع

المزري الذي آلت إليه البشرية أنتج رؤى فكرية وضعت الراهن محل مساءلة جادة لعتق الوجود الإنساني من شبح التقنية القاتلة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب؛ المجتمع التكنولوجي؛ أنسنة المجتمعات؛ التقنية؛ الأداتية القاتلة.

Abstract:

This study aims to identify the most prominent of what can be considered a breakthrough The crises of the contemporary technological situation, and a solution to extract the Western identity from the predicaments of the absence of its human meanings, which transformed in the light of the technological society from conscious wills to a mere receiver subject to the idolatry of its material industries. That is what left behind a civilizational crisis that threatens human values. This miserable contemporary situation produced intellectual visions that put the present into serious questions to liberate existence from the specter of deadly technology.

Keywords: Alienation; the technological community; the humanization of societies; technology; the deadly tool.

مقدمة:

لعل أبرز ما يميز الحضارة الأوروبية (*européenne civilisation*) ومجتمعاتها الغربية في عباءتها الحديثة والمعاصرة، عن باقي المجتمعات والثقافات والمؤسسات المدنية المغايرة لها، هو تشبع ارثها الثقافي والحضاري بالبعد العلمي ونزوعه العقلاني الذي بزغ فجره وانعتق عنوة عن ظلمات الفقه اللاهوتي الظلامي للنزعات الإيمانية المتزمتة، كان ذلك تعبيرا مفصل عن فجوة عميقة وشرخ ابستيمولوجي، مصحوب بتغير جذري، أنذر بعهد علموي قام في أساسه على قواعد وأسس صلبة من المنطق والعلم الحديث، لا على تفسيرات ضبابية منبعها الخرافة، أو دهاليز تترأسها النبوءة لا العقلانية، وبالتالي يمكننا أن نصف هذا

الحدث التاريخي النوعي الذي ساهم في رسم وترسيخ معالم جديدة للهوية الغربية، بذلك التصدع عميق الدينامية والتحول في التاريخ الغربي، ليتم الإعلان عن تاريخه وألواح قيمه وعاداته وهوياته في حالة انفصال وانقطاع عن معايير متوارثة وتنميطات بالية عهدتها عقول العامة وتربت عليها، لينشأ على اثر ذلك عصر نوراني يترأسه فعل العقلانية، التي تنشد في مطلقها بلوغ التقدم والتطور بمفهومهما الإنساني وتحقيق كماليات العيش الكريم من خلال نتاجات علمية تترتب عنها صناعات أداتية تمكنها من بلوغ هذه الغاية السامية التي تخدم الجنس البشري، إلا أن هذا الفكر العقلاني ذو البعد الواحد الذي يمكننا وصفه بالفكر الكمي الآلي، والذي تم افراغه من المحتوى الإنساني، وملئه بالبعد الآلي التقني، كان مجرد زعم انسانوي كثيرا ما أخفى في دواخله الرغبة في التسلط واحكام السيطرة على الإنسان وعلى العالم الخارجي على الحد سواء، بما في ذلك الطبيعة، تلك الطبيعة التي كانت خاصة مع العهد اليوناني تحتل مساحة لا بأس بها من التقديس والاحترام، أصبحت في عصر العلم وخطاباته الوضعية، مجرد ميدان للتجريب العلمي وهيمنته الأداتية(*sa domination instrumentale*)، كانت لهذه الأخيرة الغلبة على العلاقات الإنسانية والمحدد الوحيد لانتاجاتهم الذاتية أو الجمعية، والمعيار الذي تقاس به قيمتهم، وكأنهم مجرد سلع في سوق العمل مثلهم مثل باقي أشيائهم المادية، إن ما آل اليه الوضع البشري وعلاقات الإنسانية وقيمه، التي باتت تشهد عصر هشاشة وفراغ روحي هائل في الثقافة الغربية المعاصرة ومجتمعاتها التي غلبت عليها مفاهيم الاغتراب ومفرداته التي مزقت ذاتية ذاته، واخترقت

أصلانية هويته بفعل هيمنة النتاج التقني ذاته جعل الراهن محل المساءلة الفلسفية الجادة.

ومن خلال هذا التمهيد الذي اعتلى مقدمة بحثنا، يتسنى لنا طرح الاستفسار الآتي: إذا كانت المجتمعات الغربية قد غلب عليها الطابع التكنولوجي الأداتي الذي سلب الهوية ذاتها، فهل السبيل الذي يأمن جمع شتات هذه الهوية وإعادة بعث ونفخ روح الإنسانية فيها يكون عن طريق أنسنة كل ما هو نتاج أداتي تحريضي ليصبح نتاج انساني تحريري؟ هل يمكن الأخذ بهذا المبدأ فعلا للإنتقال من مجتمعات استهلاكية سلبية إلى إرادات وإدارات انسانية واعية؟

أما عن أبرز أهداف هذه الدراسة فتتمثل في البحث عن الأسباب والكيفيات التي تجعل فلسفة التقنية تنتقل من وضع أداتي تحريضي إلى وضع إنسانوي تحريري يعتق الوجود الإنساني من عبثية الأداتية القاتلة وتنميطاتها الباهتة.

ولتحقيق هذه الغاية الإنسانية السامية التي تمثلت في انتشال العلاقات الإنسانية من هذا الوضع البربري لا الإنساني، ظهرت تنظيرات وأخلاقيات ورؤى معاصرة أجمعت على أن الطريقة المثلى لانتشال هذا التعالق الإنسانوي من وحل الخطابات العلموية الوضعية لا يكون إلا عن طريق أنسنة المجتمع الصناعي التقني السلبي، وتنميطه بالغايات السامية.

وبالتالي الإنتقال من عبودية المجتمع الأداتي إلى فاعلية المجتمع الإنساني الواعي، واستثمار كل تلك القفزات النوعية التي حققتها النزعات العلمية في صالح الإنسان وما يخدم أخلاقياته، أما عن المنهج الذي اعتمدناه في خضم دراستنا هذه فهو المنهج التحليلي وذلك لما اقتضته

طبيعة الموضوع الذي تناولناه وفقا لرؤى الفكر الفلسفي المعاصر وعلى رأسه المفكر الألماني الأمريكي ايريك فروم، والمفكر الفرنسي جلبرت سيموندون عرضا وتفصيلا، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان لا بد لنا من الاعتماد على المنهج التحليلي لتحليل جملة الأفكار والتنظيرات التي تم تقديمها من طرف هذين المفكرين فيما يخص موضوع التقنية وانعكاساتها على البيئة المعاصرة، بما في ذلك الإنسان وأبعاده الروحية كل حسب معتقده الخاص، فالطريقة التي تناول بها ايريك فروم موضوع التقانة تختلف في توصيفاتها عن الطريقة التي طرح بها جلبرت سيموندون موضوع التكنولوجيا المعاصرة، فالأول تناولها من منظور نقدي ليعيد النظر في الأسس التي قامت عليها هذه الفلسفة وتشخيص أمراضها التي انعكست سلبا على أنطولوجية الإنسان، أما الثاني فقد تناولها من منظور إيجابي حاول من خلاله إبراز كل ما هو إنساني في الحضور التقني، فالتقنية حسب سيموندون لا تسلب الإنسان وجوده بل بحضورها تحضر الكينونة الإنسانية، وكانت هذه الإنتقالة من موقف يؤكد النزعة التشاؤمية تجاه فلسفة التقانة كتوجه أداتي يلغي حضوره الآلي الحضور الإنساني ويطمس كينونته، إلى إعادة الاعتبار لفلسفة التقنية باعتبارها إنفتاح علمي يحرر الإنسان من حاجياته التقليدية، ويسمح بظهور كل ما هو إنساني في الأشياء المادية ضمن عصرنة اكتسحت مجالاتها التكنولوجيا المعاصرة، كنزوع تفاؤلي بعصر التقانة، خاصة وأن هذه الأخيرة أصبحت إحتياجا ضروريا تقتضيه متطلبات العصر، مبررا لاختيار هاذين النموذجين المعاصرين.

1- من الأداتية القاتلة إلى بعث إنسانوي متجدد:

وقبل التطرق إلى أبرز ما جاءت به قريحة المفكرين في هذا الموضوع، كان لزاما علينا ضبط بعض المفاهيم المحورية في دراستنا، أهمها مفهوم "التكنولوجيا" ومفهوم "التقنية".

أ. في مفهوم التكنولوجيا: جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن التكنولوجيا (*Technologie*)، هي "علم التقنيات، (...) وهي مشتملة على مبادئ عامة، أو من جهة ما متناسبة مع تطور الحضارة"(جميل صليبا، 1982: 333)، إلى جانب أن التكنولوجيا تمثل علم التقنيات وتتوفر على جملة من المبادئ والأسس العامة فهي أيضا "مجموع من الآلات والآليات وأنظمة ووسائل السيطرة والتجميع والتخزين ونقل الطاقة والمعلومات، كل تلك التي تخلق لأغراض الإنتاج والبحث والحرب إلخ، وتكمن متطلبات التكنولوجيا وراء تطور العلم الطبيعي، وكما قال انجلز فإنه ما إن يطلق مجتمع ما مطلبا تكنولوجيا حتى يطور العلم بصورة أقوى وأسرع من عشر جامعات، وتنعكس النتائج العملية للعلم في التكنولوجيا ومن ناحية أخرى تمد التكنولوجيا العلم بالمعدات التجريبية"(م. روزينتال، 1940: 139)، وبالتالي تشير التكنولوجيا إلى كل ما هو أداتي وآلي يساعد الإنسان، إما في احكام سيطرته على الطبيعة وتسخيرها لخدمته، أو لبلوغ هدف معين بالاعتماد على وسائل وأنظمة متطورة سواء أكان ذلك في مجال الاقتصاد لزيادة الإنتاجية أو في مجال المعلوماتية وغيرها من المجالات المغايرة التي لا تزال تفتقر لمعدات تكنولوجية متطورة لتحقيق التحسين والتطور المعاصرين.

ب. في مفهوم التقنية: يعتبر مفهوم التقنية (*Technics*) كما ورد في المعجم الفلسفي لمراد وهبة لفظة مشتقة "من جذر هندي أوروبي ويعني الخشب، (...) وأصبح لفظ (*Techne*) يشير إلى مهارات عديدة، وفي

عصر هوميروس (750ق.م) تحرر لفظ (*Techne*) من لفظ (*Teklon*) فأصبح يعني المهارة أو الصنعة، وفي عام 7500 ق.م أصبح لفظ (*Techne*) يعني مهارة عقلية، ويطلق كانط لفظ تقني على القضايا الرياضية العملية، (...) ويقصد بها أيضا جملة من المبادئ أو الوسائل التي تعين على انجاز شيء أو تحقيق غاية"(مراد وهبة، 2007: 208).

1.1. من الاغتراب الذاتي إلى التفاؤل التكنولوجي عند «ايريك فروم"*Erich Fromm* (1900-1980):

تعتبر عقيدة الاستلاب (*La doctrine de l'aliénation*) وكل ما يمد لها بصلة من مفردات الإكراه والضغط والحرمان والضياع والتشتت والتمزق والانسلاخ، التي ترتبت ونشأت عن فعل الإستغراق والتوغل التعسفي في النزوع البربري الأداتي، أزمة الراهن القاتلة التدميرية للأنطولوجية، الدامية للأبعاد الإنسانوية، بما في ذلك الأبعاد القيمية والأخلاقية والروحانية، في حين ساهمت بكل براعة هذه الأداتية وتوجهاتها التكنولوجية في تنامي وإحياء فعل الاغتراب (*Alienation*) وفاعلية الاستيلاب أحادية التأثير السلبي التي تفيد اغتراب الذات عن ذاتيتها وانيتها، أصبح الإنسان مجرد مفعول لفعل أشيائه المادية، ولعل ذلك ما تطرقت إليه قراءة العالم النفساني والفيلسوف الإنساني الألماني المعاصر "ايريك فروم"(1900-1980) كتشخيص لأزمات الوعي الغربي الذاتي، المغترب عن هويته وماهيته، والمنسوب إلى ماهية تقانة أكثر منها انسانية.

وفي ذلك يردف "ايريك فروم" (*Erich Fromm*) وهو فيلسوف ألماني أمريكي، وقد لد ايريك فروم في فرانكفورت حيث درس علم الاجتماع والنفس والفلسفة في مدينة هايدلبرغ، حصل على الدكتوراه

على يد (الفريد فيبر) عن القانون اليهودي في علم الاجتماع- قوله لتوضيح المعنى الذي أخذه مفهوم الاغتراب قائلا في كتابه المجتمع السوي: "المقصود بالاغتراب نمط من التجربة يعيش فيها الإنسان نفسه كغريب، ويمكننا القول أنه أصبح غريبا عن نفسه، أنه لم يعد يعيش نفسه كمركز لعالمه وكخالق لأفعاله - بل أن أفعاله ونتائجها تصبح سادته الذين يطيعهم، أو الذين حتى قد يعبدهم"(ايريك فروم، 2004: 59-60)، لعل هذا التعريف الذي قال به فروم وقدمه لنا حول ماهية الاغتراب كإشكالية ومسألة اجتماعية، راهنة تتماهى واليومي، يلخص أطروحته المركزية التي شكلت محور اشتغالاته وانشغالاته الفكرية، والتي تدين بالكثير لأفكار سابقيه، ذلك أن انشغال فروم بالاغتراب لم يكن وليد ابداعية ذاتية، بل كان امتداد لانشغالات هيجل "*Friedrich Hegel*" (1770-1831) الذي رأى أن "الطبيعة والأشياء والناس والآخرين والإنسان نفسه بات غريبا عن الإنسان"(ايريك فروم، 1994: 50) وماركس *Marx Karl* (1818- 1883)، وفيورباخ "*Thesen uber*"(1804-1872) هو الآخر، هي انشغالات نظرية شكلت مرجعية فكرية أطرت بأثر رجعي رؤاه الفلسفية.

لقد أصبح الإنسان والمجتمع المعاصرين يتحدثان بلغة البراكسيس (*Praxis*)، وإن كانت لغة الراهن التعسفية، هذه الأخيرة التي لم تكن عناية لدراسات فروم وحسب بل كانت حديث ومدار نقد لكل من ماركوز "*Herbert Marcus*"(1898-1979)، و"جورج لوكاتش "*George Lukacs*" (1885-1971) كمأزق شمولي إنقلبت في ظله الحرية المزعومة، والتطور المنشود إلى أداتية وحشية أدمت شعوبا وقبائل،

وكليانات تدميرية، على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي "فرنسوا ليوتار"، أفتكت بالبعد الإنساني وجردته من ثوبه القيمي وأنطولوجيته الأخلاقية.

ولقد ارتبطت فكرة الاغتراب في خضم دراسات فروم الفكرية بفكرة أخرى ارتباطا وثيقا وهي الفكرة التي أخذت معنى الصنمية (*Idolatory*) هذه الفكرة التي تبدو في ظاهرها دينية الجوهر، وثنية العبودية وتأخذ منحى لاهوتي، مفادها أن الإنسان أصبح وثني الوجود لا ينفك إلا خاضعا وخاشعا لمختلف الأوثان والأصنام التي خلقتها الحداثة وخلفتها أزمنتها، من أداتية وأيديولوجية، وأنظمة سياسية، واجراءات قانونية، ودولة حديثة ...، لم تعد العبادة والخنوع إذن حكرا على مجرد الفهم التقليدي الديني أو بعبارة أخرى، لقد أصبحت المفاهيم الدينية بمعناها المجرد تأخذ مع الوضع المعاصر صيغا لا دينية الجوهر المفارق، من تأليه مادي محايث للوجود وغيره من لغة العصر الشائعة وهي لغة الممارسة العملية لا الروحانية، وذلك ما تطرق إليه فروم في كتابه "مساهمة في علوم الإنسان" والذي أكد في متنه مدى عبودية الإنتاج الاستهلاكي ووثنيته كرمز ديني يحضر من خلاله الاله في الثقافة المعاصرة كشكل من أشكال الوثن المادي.

لغة العتاد التجريبي لا لغة الكائن البشري، وفي ذلك أصبحت مفردات العلم التي خلقتها الحداثة، تتجلى في صفة إله مادي جديد وحديث النشأة صنعه الإنسان بذاته ثم خضع له، وأضفى عليه صفة القداسة، ليغترب بذلك الإنسان عن هويته وينقلب إلى مجرد شيء تحركه آلية انتاجاته، وتوجه سلوكيته مادية أشيائه التي أصبحت لها الغلبة على أفعاله، وهنا يتم تغييب الوعي الذاتي لتصبح السيطرة للفعل

الأداتي، لم يعد الاغتراب مجرد انسلاخ ذاتي وحسب بل أصبح دينيا كذلك، وذلك ما خلق شعورا قلقا من الوضع المعاصر الراهن.

هو وضع بات يهدد هوية الإنسان ذاته "ذلك أن الإنسان العصري يعاني من مرض الاغتراب، لقد ذهب مفهوم الاغتراب في غياهب النسيان عقودا، لكنه بدأ يستعيد شعبيته مؤخرا لقد استخدمه من قبل هيجل وماركس، ولقد يكون المرء محقا عندما يقول أن فلسفة الوجودية، هي في الأساس تمرد على تزايد غربة الإنسان في المجتمع المعاصر"(ايريك فروم، 2013: 26)، ولذلك كانت الدراسات الوجودية أبرز ما يمكن اعتباره اسهاما جادا للحد من هوة الاغتراب، التي مضت في ابتلاع واقتلاع القيم والعادات والهويات من أرضيتها في الثقافة المعاصرة، لقد باتت هذه الهوة هاجسا وحشيا وقلقا أنطولوجيا يهدد إنسانية الإنسان ويهز استقراره الوجودي، خاصة بعد تلك النتائج التدميرية التي خلفتها الأوهام الهيومانية البربرية وعقلانياتها الشمولية الكليانية -على حد تعبير الفيلسوفة الأمريكية "حنة أرندت"، من حربين عالميتين افتكت بالنوع البشري.

يصف كارل ماركس تاريخ النوع البشري والذي تحكمه بطبيعة الحال الدينامية وحتمية التطور، بتاريخ الاغتراب متزايد الوتيرة، كلما خضع الواقع المعاش لوقع التحول والتغير التاريخي، كلما عرف حالة اغتراب في تزايد مستمر، وكأنه هناك ارتباط وتعالق جدلني بين التاريخ الذي لا يعرف الثبوت والاستقرار وبين فعل الاغتراب، ذلك أن الاغتراب لدى ماركس ببساطة "يعني أن الإنسان لا يمارس ذاته كقوة فعالة في عملية فهمه للعالم، بل كون العالم (الطبيعة، الآخرون، وهو ذاته) ما زال مغربا بالنسبة للإنسان، أنها تقف فوقه وضده كأشياء، حتى برغم

كونها مواضيع لخلقه، إن الاغتراب هو، جوهريا، ممارسة للعالم وللذات بشكل سلبي وبتلق، كما لو أن الذات هي في حالة انفصال عن الموضوع" (ايريك فروم، 1998: 63)، أصبح الاغتراب حالة ضياع وتشتت يخترق هويته الأنطولوجية ويهددها بالزوال والتلاشي، فهو يفرض ذاته كقوة إمبريالية وحدث إجتماعي وديني، يسلب الذات إرادتها الواعية، وفعلها الخلاق وينسبه لصناعاتها، أي سلب وتجريد العالم الإنساني من ممارساته الواعية، واسقاط السيادة عنه لتصبح الكينونة مجرد لعبة تحركها أيدي تكنولوجية تخضع لنزعة تقنية *Technicité*.

لم تعد العلاقات الإنسانية تربطها تلك القيم السامية التي عنى بدراستها "أكسل هونيث، من حب (*aimer*) وتضامن(*solidarité*) وتسامح (*tolérance*) واعتراف اتيقي (*Confession éthique*)...، والتي اعتبرها شفاء من مرض المجتمع المعاصر، وترياقا تضمد به جروح خلفتها أوهام الوعي الغربي الكاذب الذي انحرف عن مساره، وكأنها أشياء متكثرة في حيز مادي يخلو من المشاعر والقيم، تحكمه نظم وطرائق صناعية غابت فيها كل براديغمات وآليات ونماذج الحياة الإنسية الحقة.

ليصبح نموذج الشيء الأداتي (*chose instrumentale*) هو النموذج الاختزالي الطاغي على الفعل البشري، فعلى الرغم مما يحمله مفهوم الاستلاب من غرابة ومن معاني الحرمان إلا أنه أصبح موضة العصر، لما حققته فلسفة التقنية من نجاحات مبهرة ولو كانت هذه النجاحات قد انقلبت فيها بعد إلى أشكال خطيرة تهدد وجودية الوجود، "لقد أصبح الفرد في العالم المعاصر أشبه ما يكون بمهاجر في الزمن مثلما كان أسلافه مهاجرين في المكان، كما تقول الباحثة الأنثربولوجية مرغريت ميد بل إن تواتر الإبداعات التقنية وسرعتها أصبحا أمرا يتعذر استيعابه

ومتابعته، وهذا ما يولد لدينا رد فعل المتفرج المشدوه أمام طفرات أشبه ما تكون بالسحر"(سبيلا محمد، 2009: 204)، إلا أن هذه الإبداعات التكنولوجية وعلى الرغم مما ساهمت فيه من اختزال الجهد وتوفيره وتسهيل العيش على الإنسان، لا يمكن أبدا إخفاء وجهها الوحشي المشبع بالأبعاد الايديولوجية كتشريع لإحكام السيطرة على الإنسان وعلى العالم الخارجي.

هذه الموضة أصبح لزاما علينا الحد من أذاها القاتل والمميت، ولعلنا نجد في تصور "مارتن هيدجر" للتقنية شيئا ما، من معاني زيف الوجود وشبحه الذي ساهمت في ابدائه فسلفة التقانة، ذلك الوجود الباهت الذي يسلب الكينونة الإنسانية أصلانية وجودها وحقيقة ذاتها، فكلما مضى الإنسان مستغرقا في تبجيل ما صنعته يداه، وأصبح مجرد آذان تصغي فقط لصوت لوتيرة التكنولوجيا المتسارعة كلما ضاع جزء أنطولوجي من ذاته وانتسب إلى أشيائه الموضوعية الصناعية، وبعبارة أخرى كلما تغرب الإنسان عن شاعرية لغته الأصيلة التي تحمل إبداعية قائلها ونطق بلغة الآلية أصبح شبحا لوجود، وفي ذلك تفقد الغاية قيمتها لتصبح مجرد وسيلة، فالغايات الإنسانية تتحول مع التصور الأداتي إلى مجرد وسائل وآليات ومعدات من أجل بلوغ رفاهية وتحقيق التحسين المعاصر (*amélioration contemporaine*)، "إن إرادة الإرادة تنفي كل الغايات في ذاتها ولا تسمح بأية غاية، إن لم تقدم ذاتها كوسيلة"(سبيلا محمد، 2009: 203)، تنمحي جل الغايات الإنسانية في ذاتها لتنقلب في ظل المشروع التقني وسائل ومعدات تأخذ مظاهر إعلام وحوسبة وغيرها من مظاهر التطور التكنولوجي المخيف، هو عصر الرقمنة بامتياز، عصر تكنولوجي قام بتحرير الإنسان من أعبائه ومتطلباته ليصبح فعل

التحرر هذا مجرد فاعلية للعبودية والسيطرة، وعبء ثقيل الوزر على الإنسان، "يسمح لنفسه بأن ينظر إليه على أنه المطلق التقني، كتسمية لجوهر التكنولوجيا الحديثة، حيث تشير التقنية ضمنيا إلى أنها لا تعترف بأي حد لقوتها" (philippe milit Jean , 2000: 10) أصبحت التكنولوجية الحديثة تقدم ذاتها كإرادات سيادة، وتفرض ذاتها كقوة ضارية لا يمكن لأي قوى مغايرة لها الوقوف أمامها أو مواجهتها، هو زعم تكنولوجي مضى مطولا في تضخيم ذاته واستعلاء شأنها، في حين تقزم الإنسان وتجعله مجرد ظل يوجه امتداده الأداتية، هذه الأخيرة لا تخفي رغبتها في استكمال سيطرتها على العالم، وفرض تصوراتها العملية على واقعية الإنسان الحديث والمعاصر.

يرى مارتن هيدجر"*Martin Heidegger*"(1889-1976)، في كتابه التقنية -الحقيقة- الوجود أن التقنية "شكل من أشكال الإنكشاف، فهي تنشر كينونتها في المنطقة التي وجد فيها الإنكشاف، واللاتحجب، والأليتيا أي حيث وجدت الحقيقة، (...) يقال أن التقنية الحديثة مختلفة عن سابقاتها (...)، لأنها مؤسسة على العلم الدقيق للطبيعة،(...) إن الانكشاف الذي يسود التقنية الحديثة (*Technologie moderne*) لا يتجلى في انتاج، بمعنى انتاج شعري، الانكشاف الذي يسود التقنية الحديثة هو عبارة عن تحريض عن طريقه تكون الطبيعة منذورة إلى تقديم طاقة"(هيدجر مارتن، د. ت: 55)، فالانكشاف التقني أينما حلت أشكاله المتعددة غابت به انكشافات الكينونة واضمحلت حقيقتها بل تحل محلها.

لتصبح هذه الإنكشافات التي تتجلى من خلالها ماهية الأشياء الأداتية وحقيقتها قوة الحدث الذي يختلف شكل ظهوره إلى العلن كل

الاختلاف عن الانكشاف الانطولوجي للوجود الذي "تم نسيانه اليوم"(Heidegger MARTIN, 1984: 21) على الحد سواء، ذلك أن الوجود الماهوي للتقنية لا يبرز ذاته إلا من خلال علاقة عكسية ولغة إخضاعية للطبيعة، ولا تتأسس في الوجود إلا من خلال ايتيكاته الاستهلاكية لطاقات العالم الخارجي، فإن بدت الأشياء التقنية اختفت آليا الذوات الواعية، أما عن الانكشاف الأنطولوجي لحقيقة الكينونة والوجود فهو انكشاف لغوي لا يسلب الوجود حقيقته، ينطق بالشعرية التي تنبذ الوجود المألوف واللغة الشائعة، لتؤسس لأصلانية وجودها واختلافه وفق إبداعية شاعرية لغوية تنكشف فيها حقيقة الكينونة انكشافا واقعيا محايثا دون حجاب، فإن كان الانكشاف التقني تحريضي فإن الانكشاف الوجودي هو انكشاف تحريري، أي تحرير الكينونة من أغلال وصنمية الآلية والأداتية، وبالتالي أصبحت التقنية هي الحقيقة المسيطرة، فلا توجد حقيقة اجتماعية روحية بشرية أكثر منها حقيقة تقنية في العالم الحديث، بما في ذلك الدولة حيث تستخدم الدولة "دائمًا تقنيات أكثر أو أقل استخدامًا، كما هو الحال في كل شيء آخر(...) هذه ليست حقيقة جديدة هنا، حيث تم العثور على هذه التقنيات في مجالات محدودة، تتوافق مع وظائف الدولة" (Ellul JACQUES , 1954: 238).

2. 1. أنسنة المجتمع التكنولوجي:

مثلما كانت الاشتراكية (*socialisme*) بمثابة العلاج النفسي الذي يعيد للروح الإنسانية نفسها الوجودي، كحل لتأزم الذات المغتربة عن كينونتها لدى كارل ماركس، كذلك حاول اريك فروم إيجاد حل للخروج من مأزق المجتمع الصناعي إلى فسحة نور المجتمع الإنسانوي، وفي ذلك يحاول ايريك فروم تقديم مقاربة تكون أقل ضررا

لتحقيق إنسانية المجتمع الصناعي، بعيدا عن إحداث الخلل والاضطرابات داخل النظام الاجتماع، أو إحداث تمرد ثوري يغير الواقع بالقوة لا بالسلم، كإمكانية تفضي إلى اضطهاد دكتاتوري وحروب شاملة تفتك بالمجتمع بدلا من إصلاحه وتقويم مساره، وبالتالي تعتبر إمكانية أنسنة المجتمع الإمكانية الأنجع لدى فروم لأحداث نقلة نوعية في الحياة الجمعية، وتحقيق ذلك حسب فروم لا يكون إلا عن طريق جملة من التخطيطات التي تشمل عالم الإنسان ونسقيته، الذي أصبح لزاما على أفراده تفعيل آلية التضامن والتكاتف والتآزر الاجتماعي لبلوغ هذه الغاية الملحة.

أبرز هذه التخطيطات "تخطيط يشمل انسان النسق والقائم على معايير تتبع من فحص الأداء الأمثل للإنسان، فعالية الفرد بمناهج حافلة بالفعالية والمسؤولية المتجذرتين، ومع تغيير المناهج الحالية للبيروقراطية المغتربة إلى مناهج الإدارة الإنسانية، تغيير نموذج الاستهلاك إلى إتحاد الاستهلاك الذي يساهم في الفعالية ولا يشجع السلبية، وإن بزوغ معايير جديدة للتوجه والتكريس السيكولوجيين والروحيين مما يتساوى مع الأنساق الدينية في الماضي"(ايريك فروم، 2010: 151)، أصبح فعل إحياء الأمل الإنساني في تجمعات الآلة مرتبط ارتباطا وثيقا في تنظيرية ومقاربة فروم، بعمق التغيير الجذري الذي يمس النظام السياسي والاجتماعي السائد، وبالتالي يجب الانتقال من نظام استبدادي تعسفي ديكتاتوري قائم على العنف العلمي المعلوماتي والإستعباد الصناعي إلى نظام إنساني تديره وتتحكم فيه أيدي وإرادات إنسانية واعية، تكون مدركة لما يخدم انسانيتها، وعلى وعي بما يشكل خطرا على نوعها البشري.

فإن كانت السمة التي لها الغلبة على هذا العصر هو سمة العلموية المتطرفة والقيم الإنسانية الهشة، فإن الحال الذي يجب أن يصبح عليه مستقبل الإنسان هو إنشاء أرضية تحتضن بعث إنسانوي متجدد القيمة والهوية الدينية، أصبح البعث الروحي في عصر المادية والوضعية، مطلبا إنسانيا ضروريا "إن الهدف العام للمجتمع الصناعي المؤنسن يكمن أن يتحدد على هذا النحو: إن تغير حياة مجتمعنا الثقافية والاقتصادية والاجتماعية على نحو أنه يبتعث ويزيد من النمو والحيوية للإنسان بدلا من إعاقته، إنه ينشط الفرد بدلا من أن يجعله سلبيا ومتلقيا" (ايريك فروم، 2010: 154) ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الضبط الآلي والمراقبة المشددة للعتاد التكنولوجي بما في ذلك الحوسبة أو الكومبيوتر الذي أصبح خطرا ينخر في جسد المجتمع حد الهلاك، وبالتالي لابد من إعادة الاعتبار للمعايير التقليدية وتنميط الأداتية بالغايات الإنسانية التي تسيرها عقلانيته في فطرتها السوية للحد من خطورتها، ورسم حدودها وتكييفها حسب ما يخدم المجتمع فقط وينتفع به الإنسان، أصبح فعل تثبيط الأذى الذي ترتب عن الثورات الصناعية - الحروب والأسلحة النووية- والتكنولوجية ضرورة لا بد منها ولا يكون ذلك إلا من خلال إحياء منظومة القيم والعادات والهويات الدينية والعودة أخلاقيا وإيتيقيا إلى ماهية وإنسانية الإنسان كمصدر ومرجعية للقيم، وبالتالي اسقاط المعيارية عن الإنتاج الأداتي ليحل محلها الإنتاج الإنساني، وبذلك يصبح التطور وإن كان علميا محكوم بإنسانية الإنسان.

2- التقانة كثورة أمل لإحياء الأبعاد الإنسانية لدى "سيموندون":

2. 1. الجانب المشرق لفلسفة التقانة:

تعتبر التقنية (*Technologie*) وطرائقها الآلية في عصر السرعة المبهر هذا "طرق جديدة للوصول إلى المعرفة في الموسوعات الرقمية، حيث تكون التقنيات واسعة النطاق، ومرئية بسبب حداثتها ومن باب أولى في المجالات الحساسة مثل الفكر أو الثقافة أو التعليم أو الحياة مع (الهندسة الوراثية) تثير ردود فعل متناقضة ومحفزة للغاية، لكن نادرا ما يفكر في حد ذاتها" (Alexandre Serres, 1995: 9)، لقد أخذ هذا التطور التقني الذي اكتسح ميدان العلوم برمتها ولم يكتف بميدان العلوم التجريبية الطبيعية وحسب بل اجترح أيضا ميدان البيولوجيا -علم الأحياء، أين برزت بقوة الهندسة الوراثية كتطور تقني عالي للتعديل والتحسين الجيني البشري والحيواني كذلك، باعتبارها آخر صيحة وذروة الإنجاز البيوتكنولوجي المعاصر والسياسة الحيوية، والتي ظهرت "كمحصلة طبيعية لثورتين، هما ثورة اكتشاف أسرار المادة الوراثية *DNA revolution*، وثورة اكتشاف أنزيمات التحديد (*Restriction enzymes*)، بدأت الثورة الأولى عام 1953 عندما اكتشف طبيعة جزيء *ADN*"(أبو يعرب أحمد، 2010: 05) برزت هذه الثورة على يد كل من العالمين جامس ويتسون، وفرانكس كريك، ولم تتوقف إنجازاتهم العلمية عند هذا الحد بل أرادوا أيضا تطوير جزيئات (*DNA*)، وإعادة خلق تركيبات محسنة جينيا في النظام الوراثي للأحياء البيولوجية، وذلك ما خلق تهديدات خطيرة للجنس البشري، إننا أمام تقنيات أحيائية حققت قفزة مرعبة في البيوتكنولوجيا والبيوكيمياويات التي أصبحت مسيطرة على النظم الوراثية ما قد يخلق جنسا غريبا عن النوع الإنساني أو قوة نووية كثورة فيزيائية تفجر العالم وتتركه خرابا، علاوة على ذلك وما للهندسة الوراثية من إيجابيات في الحياة البشرية يمكن أن

تسخر تقنياتها لخدمة النوع البشري إلا أنها قد تنقلب إلى تهديد حتمي يدمر أخلاقياته وتهدم قيمه، من خلال الإستغلال المادي عن طريق المتاجرة بالأعضاء البشرية وهو ما ينافي أخلاقيات الإنسان، وعلى إثر ذلك ظهرت أخلاقيات الطب (*Ethique médicale*) في النصف الثاني من العشرينيات التي ظهرت بصفة رسمية مع العالم البيولوجي فان بوتر رينسلاير، التي أعادت الاعتبار لحقوق الإنسان كمادة حية لها قداستها التي تنأى عن أي اختبارات تجريبية.

هي "أخلاقيات جديدة تواجه تجاوزات البيوتكنولوجيا، (...) في هذه البيئة اللادينية وتطورات علوم الحياة وما صاحبها من تقنيات الإنجاب الصناعي، والهندسة الوراثية، والتجارب على الإنسان المرتبطة بالجهاز العصبي بشكل خاص، والاختبار الدوائي، وما يتعلق بزرع الأعضاء وتغيير الجنس، والموت الرحيم"(محمد الشياع رحيم، 2020: 84-85) أصبحت كل هذه الإنجازات العلمية التي ترتبت عن تطورات بيوتقنية *biotechnologie* ضخمة رهانا للطرح البيواتيقي *Bio Atiq* كتتميط أخلاقيات جديدة تضبط هذه التجارب العلمية وتحد من خطورتها.

لقد كانت انشغالات الفكر الفرنسي بالتقنية وعلى رأسه المفكر جاك لافيت "*Lafitte Jacques*" (1767-1844)، وجلبرت سيموندون *Gilbert Simondon* (1924-1989) من بين الرؤى النادرة التي بحثت في ماهية التقنية وأعادت الاعتبار لفلسفتها التي شهدت نوعا من الرفض الصريح في المتجتمع المعاصر لما آلت اليه نتائجها، حيث يعتبر خطاب "جلبرت سيموندون" - وهو فيلسوف فرنسي اشتهر بنظريته في التفرد وعمله في مجال فلسفة التكنولوجيا، حيث ركز جهده الفلسفي

على إبراز البعد الإنسانوي في الحضور التقني الآلي، من خلال العلاقة التي تربط بين الإنسان والتكنولوجيا، ولذلك عرف جلبرت بفيلسوف التقانة والتفرد- أبرز ما جاءت به فلسفته المعاصرة لرد الاعتبار لفلسفة التقنية التي وضع أسسها "أرنست كاب" في كتابه مبادئ فلسفة التقنية، والتي كثيرا ما شكلت خطرا يحكمه هاجس التصور التقليدي وفهمه الكلاسيكي لخطابات غلبت عليها أحاديث وضعية وتوجهات علموية، وهو ما يعرف بالتشاؤم التكنولوجي المعاصر (*Pessimisme technologique contemporain*) الذي اتخذ من التقنية وجودا ماهويا يسلب أصلانية الوجود الحقيقي للطبيعة وللإنسان، ما يمهد لفعل اغتراب الحقيقة والماهية والطبيعية الإنسانية عن ذاتها، ويخلق بعدا تقنيا خاليا من ملامح الإنسان ومجرد من أفعاله، الأمر الذي أدى إلى التماهي بين الناس ونتاجاتهم المادية، كتجمعات صناعية تحكمها الآلية والعتاد التقني والماكينات الإصطناعية، وكتسليع مادي.

وبالتالي ينقلب مفهوم التطور الصناعي بما يحمله من معاني العلم والتقدم إلى خطر يهدد حرية الإنسان، إلا أنه كان لسيموندون قول آخر إنسلخ فعليا عن عقيدة الفهم الكلاسيكي وعن مفهومه للتقنية وللثقافة الغربية، على الحد سواء حيث يرى أنه يجب أن ننظر إلى التقنية كصناعة إنسانية تحمل من ماهيته ومن مفرداته ومن قيمه حمولة لها ثقلها ووزنها الأخلاقي والقيمي والاجتماعي والسياسي، وليس مجرد أداة لبلوغ أهداف ونتائج معينة، فالتأصيل الذي سعى إليه جلبرت جاهدا ترأس فعل الإنفتاح على الفهم الحقيقي للتقانة كفاعلية تنذر بعصرنة التقدم، المصحوب بتباشير عصر جديد يحرر الإنسان، ولا يأسر ذاته، يمكن اعتبارها ثقافة إنسانية لا أداتية تسمح بظهور كل ما هو إنساني

في ماهية الأشياء التقنية، علاوة على ذلك فإن للتقنية حسب سيموندون أهمية في الدراسات الأنثربولوجية التي تعتمد في بياناتها على جملة من التعداد التقني، وفي ذلك يؤكد سيموندون أن "ترتيب الواقع الخاص بالأشياء التقنية يمكن أن يوفر نموذجًا لتفسير البيانات الأنثروبولوجية يكون أكثر إثارة للاهتمام وأعمق من النموذج اللغوي الذي تستند إليه بنيوية ليفي شتراوس، هذا ما أكده جان إيف شاتو في عرضه" (Simondon Gilbert, 2005: 195)، وبذلك جعل سيموندون من الأشياء التقنية وابستيمولوجيات التكنولوجيا الحديثة والمعاصرة، نموذجا واقعيا يتداخل وعالم الإنسان، وكان ذلك خطابا ابستيميا تقنيا يغلب على النصف الثاني من عشرينيات القرن، وفي خضم هذا النموذج التقني يعود الإنسان للارتباط بعالمه الخارجي البيئي من جهة وبموضة العصر الناتجة عن الإختراعات التقنية كمظهر من مظاهر التحضر من جهة ثانية، ذلك أن الإنسان ليس مستهلكا سلبيا بل كائن يخترع وينتج ويصنع ما يناسب احتياجاته الحضارية ويتوافق مع نموذج حياته الثقافية، لقد بدأت بالفعل حسب سيموندون "بدأت المفاهيم السيبرانية والمعلومات في التطور في العلوم الطبيعية لتشمل العلوم الاجتماعية. في الوقت نفسه، تم قبول علوم الكمبيوتر والمعلومات والاعتراف بها لأن علوم الكمبيوتر أثبتت الأبحاث الحسابية صحتها في مجالات أخرى، (...) اكتشفت دراسة الذكاء الإصطناعي، بمساعدة الآلات، آفاقًا جديدة للبحث الموضوعي والعلمي، كانت هذه المشاريع امتدادًا أفقيًا وجانبيًا، والتكاثر الشرعي في الأنواع وعالم البحث السمعي" (Simondon GILBERT, 1989: 7).

وبالتالي لا يمكننا انكار تلك القفزات المذهلة التي حققتها البيوتكنولوجيات المعاصرة وسياساتها الحيوية التي وصفتها مرغريت

ميد بقفزات أشبه ما تكون بالسحر، فالتصورات والمفاهيم السيبرانيية وما تنطوي عليه من تطورات تشمل الذكاء الصناعي إستنادا إلى أدوات تقنية ساهمت في تطوير معدلات الذكاء الآلي، أمر بالفعل يثير المزيد من العناية المعاصرة، لما فتحته من آفاق وفتوحات علمية جد متطورة.

خاتمة:

خلص البحث في نهاية المطاف إلى الإرساء على جملة من النقاط الأساسية أبرزها:

أن التطرف في النزعات العلموية الحديثة والمضي في تبجيل وتقديس العقلانية في مختلف صورها الدغماتية، وما ترتب عنها من تطورات علمية وتكنولوجية بزعم تحرير الإنسان من حاجياته التقليدية، وتمكينه من احكام وفرض السيطرة على العالم الخارجي، وفك شيفرات أسراره الكسمولوجية، والتعرف عليه بمنهج إمبريقي حديث النشأة، لتحقيق غايات تبدو في ظاهرها سامية وجد إنسانية تخدم النوع البشري، من تقدم، وتطور، ومواكبة موضة التحضر، مجرد خطابات وضعية مشبعة بأبعاد أحادية، اختزالية، كانت لها الغلبة على المجتمع المعاصر، والتي جعلت من هذا الأخير يشهد مأزقا إنسانيا ووضعا راهنا متأزما.

حيث انقلبت أسباب التقدم والتحرر والتطور والتحسن، وكل تلك المبادئ النورانية التي قامت عليها النزعة الهيومانية الغربية من عدالة، ومساواة، وديمقراطية، إلى واقع ظلامي إخترق المعيارية الأخلاقية وجرد الإنسانية من ثوبها القيمي والأخلاقي، ليحل محلها المعيارية الاستهلاكية، التي تشيأت ضمنها العلاقات الإنسانية فأصبحت مجرد لعبة تحركها وثنية الأداتية، ذلك العتاد الذي صنعه الإنسان بذاته

ليسخره لخدمته، ما انفك إلا أن جعل من الإنسان عبدا له، راضخا لقفزاته البيوتقنية والبيوتكنولوجية والبيوكيميائية.

أصبحت لغة الإنسان الراهن هي لغة الأداة التقنية ذاتها الخالية من ملامحه، الفارغة من أبعاده، باهتة الوجه الإنساني الذي كان له وجود أخلاقي قابل للإستنطاقات الإيتيقية، لم يكن ذلك اغترابا ذاتيا وحسب بل كان دينيا كذلك، لقد أصبح الإله المعاصر في غربة شديدة عن هويته الروحية المتعالية، حيث أخذ شكل التقنية والأداتية وكل تطوراتها كرمزية يحضر من خلالها الإله في صورته المادية المحايثة.

لقد انقلبت التقنية من أداتية تحريرية إلى أداتية تحريضية، قاتلة وحشية، عبثت بوجودية الإنسان، وجعلته مجرد أداة لفرض سيطرتها على عالم الإنسان برمته، كان لهذا التوغل العلموي الخطير آثارا وخيمة أدمت الحياة البشرية بفعل تلك الأنظمة التوليتارية الشمولية المحكومة بإرادات التصارع والقوى.

أصبح لزاما على الوضع الراهن انتشال العلاقات الإنسانية من هذا الوضع البربري لا الإنساني، وعلى اثر ذلك ظهرت رؤى وتنظيرات وأخلاقيات للحد من الخطورة التي بلغتها التكنولوجيا الحديثة، وفي ذلك يرى كل من ايريك فروم وجلبرت سيموندون أن السبيل الأبلغ لإحياء وإعادة بعث الأبعاد الإنسانوية للمجتمعات، يكون عن طريق أنسنة المجتمع الصناعي التقني السلبي، وتنميطه بالغايات الإنسانية، وبالتالي الإنتقال من عبودية المجتمع الأداتي إلى فاعلية المجتمع الإنساني الواعي، واستثمار كل تلك القفزات النوعية التي حققتها النزعات العلمية في صالح الإنسان وما يخدم أخلاقياته، ولا يمس بكراماته وقدسيته.

وبالتالي إظهار كل ما هو إنساني في الحضور التقني، أصبحت المعيارية الإنسانية وأخلاقياتها التطبيقية سبيل الإنعتاق من وثنية الأليتيا على حد تعبير مارتن هيدجر.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو عرب أحمد، (2010). **الهندسة الوراثية بين الخوف والرجاء**، ط.1 القاهرة: دار الفوائد للنشر والتوزيع.

2- ايريك فروم، (1994). **ما وراء الأوهام**، ط.1. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

3- ايريك فروم، (1998). **مفهوم الإنسان عند ماركس**، ط.1. سوريا: دار الحصاد للنشر والتوزيع.

4- ايريك فروم، (2004). **الإنسان المغترب**، د.ط. القاهرة مصر: مكتبة دار الحكمة للنشر.

5- ايريك فروم، (2010). **ثورة الأمل نحو تكنولوجيا مؤنسنة**، ط.1. القاهرة: دار الكلمة للطباعة والتوزيع والنشر.

6- ايريك فروم، (2013). **كينونة الإنسان**، ط.1. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

7- روزينتال م، (1940). **الموسوعة الفلسفية**، د.ط. بيروت لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.

8- سبيلا محمد، (2009). **مدارات الحداثة**، ط.1. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

9- الشياع رحيم محمد، (2020). **مدخل إلى فلسفة الأخلاق التطبيقية**، ط.1 بيروت لبنان: دار ابين الكتب للنشر والتوزيع.

10- صليبا جميل، (1982). **المعجم الفلسفي**، د.ط. بيروت لبنان: دار الكتاب اللبناني للنشر والتوزيع.

11- هيدجر، مارتن. (د. سنة). **التقنية - الحقيقة - الوجود**. د.ط، بيروت لبنان: المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع.

12- وهبة مراد، (2007). **المعجم الفلسفي**، د. ط. القاهرة: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر.

13- Ellul Jacques. (1954). ***La Technique ou L'enjeu du Siècle***. Paris: A. Colin For publication.

14- Heidegg Martin (1984). ***Être et temps***. Paris: Without a publishing house.

15- Philibbe Milit jean. (1995). ***L'absolu Technique Heidegger et la question de la technique***. Paris: impasse des peintres Publishing and Distribution.

16- Serres Alexandre (1995). ***L'Obsession de la " Question technique " : Pour un autre regard sur les technologies numériques***. Mémoire de DEA, université de renne2-Haute Bretagne, novembre 1995, disponible sur le site: memsic.ccsd.cnrs.fr.

17- Simondon Gilbert (1989). ***Du mode D'existence Des Objets Techniques***. France: Without a publishing house

18- Simondon Gilbert (2005). ***L'Invention dans les techniques***. France: Without a publishing house.